فى الأدب العـــربى

للأستاذ عبد اللطيف محمد ثابت

فى عدد مضى من الثقافة كلمة للأستاذ الكبير أحمد بك أمين يعيب فيها على كثير من الأدباء ميلهم إلى قصر الأدب على الشعر والنثر الفنى المصنوع ، ويحثنا أن نعيد النظر فى هذا الوضع من ناحية الأدب القديم والحديث : فمن ناحية القديم يجب أن نتوسع فى فهم معنى الأدب ، فندخل فيه الشعر العمودى والنثر الصوفى ، والأساليب المتبعة فى شرح النظريات الاجتماعية والاقتصادية إذا كانت أدبية ، وكذلك الأساليب المتبعة فى كتب التاريخ والرحلات والفلسفة والقصص من نوع ألف ليلة وليلة . ومن ناحية الحديث يجب أن يتجه أدباؤنا إلى الموضوع أكثر من الشكل ، وحمد الله إذ رأى هذا الاتجاه واضحاً جلياً من أدباء العصر الحديث ، وضرب لذلك الأمثلة ، ثم قال : « ففهمنا للأدب على أنه شعر أو نثر يشبه الشعر أو قصة بديعة ، أو نحو ذلك ، فهم قاصر ، والأدب أوسع من ذلك وأشمل » ، وقال : « وأرى أن هذه الفكرة عن الأدب غير صحيحة ، وأنها ضارة بالناشئين والمتعلمين ؛ إذ تجعلهم يتصورون الأدب على أنه حلية لفظية شكلية ، فإذا عمق الكاتب وفكر تفكيراً دقيقاً ، خرج عن الأدب ولم يسم أديباً ، وضرر هذا واضح ، وهو اتجاه الأدب العربى إلى السطحية ، والعناية فيه بالشكل أكثر من الموضوع »

هذا مجمل ما قاله أستاذنا الكبير ، ولا أدرى إلى أى شىء يرمى . إنه عاب على الأدباء قصرهم الأدب على الشعر والنثر المشبه الشعر والقصة البديعة ونحو هذا ، لأنه أوسع من ذلك وأشمل ، فماذا بقى بعد هذا مما يصح أن يكون فى متناول أوسع وأشمل ؛ حتى ندخله فى الأدب ؟

إن الشعر هو الكلام ذو الوزن والقافية المشتمل على التصوير البديع المؤثر لأنواع الإحساس ، سواء أكان إحساساً صوفياً أم فلسفياً أم خيالاً من واد آخر غيرهما . والنثر المشبه للشعر هو ذلك النثر الفنى المصنوع ، ويراد بالصنعة ما يرتفع بالنثر إلى ما يحقق معنى الفصاحة والبلاغة على ما اتفق عليه الأقدمون ، ولم يعارض فيه المحدثون ، سواء أتناول النثر شرحاً لنظريات اجتماعية أم اقتصادية ، أم تناول التاريخ والرحلات ، أم تناول الفلسفة ، أم كان قصصاً ، بل يمكن أن يدخل فى متناول النثر الفنى المصنوع بهذا المراد من الفن والصنعة طوائف العلوم الأخرى ، فكلما نثر فيه فن وفيه صنعة بحسبه ، فماذا بقى بعد ذلك حتى يكون فهمنا للأدب على أنه الشعر أو النثر المشبه للشعر أو القصة البديعة أو نحو ذلك فهماً قاصراً ؟

لم يبق يا سيدى البك إلا الكلام الذى اتضع ولم تتحقق فيه شروط الفصاحة والبلاغة ، فصار بحكم ما فقد من شروط الأدب غير أدب ، وصار الكاتب له غير أديب .

فهل تريد أن يدخل مثل هذا على أنه أمثلة تحتذى فى مباحث الأدب ؟ فماذا يكون الأدب إذن ؟

إن الأدب فن رفيع كالموسيقى وما يشبهها ؛ فلنتصور أننا توسعنا فى متناول الموسيقى حتى جعلناها تشمل كل ما يمكن أن يكون صوتاً ، فهل يكون ذلك مقبولا ؟

كذلك الأدب لا يمكن أن يكون أدباً إذا توسعنا فيه فجعلناه يشمل كل ما يمكن أن يقال أو يكتب ، فإن ذلك تضييع لقيمة المثل العليا من الكلام ، وتضييع للمبرزين من الكتاب من القدماء والمحدثين ، مع ملاحظة أنه لا يعقل أن يكون كلام مكتوب لا موضوع له إلا ما يصدر من المجانين ؛ فأولئك الكتاب الذين يجالسون بجانب كل محكمة ، ويسمون بالكتاب العموميين ، لهم موضوعاتهم التى يتناولونها فيما يكتبون ، وليس من المعقول أن تكون رسائلهم من مباحث الأدب . ولست أعلم أن أحداً من المتقدمين منع أن يكون الشعر الصوفى والنثر الصوفى ، والكتب التى تشرح النظريات الاجتماعية والاقتصادية والتى تتناول التاريخ والرحلات والقصص من نوع ألف ليلة وليلة والفلسفة — منع أن تكون هذه مما يتضمنه معنى الأدب حتى ينبهنا الأستاذ الكبير إلى أن نعيد النظر فى هذا الوضع من ناحية الأدب القديم فندخل فيه هذه الموضوعات .

ويقول الأستاذ إن هذه الفكرة عن الأدب أنه مقصور على الشعر والنثر الفنى المصنوع ضارة بالناشئين والمتعلمين ، ويقصد من غير شك الناشئين والمتعلمين فى هذا العصر ، فهو يخشى عليهم أن